



A Critical Investigation of AL- Maarri's thought on woman, World and death: It's Semiotics and Resources

Ibrahim Anari Bozchallouei^{a*}

^a Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Arak University

KEYWORDS

Abu ala al-Maarri,
innate & pretence to
innateness,
woman & world & death.

ABSTRACT

Abu ala al-Maarri lived in the heyday of thoughts in Abbasid II era. He was influenced by thoughts and logic of some contemporary philosophers. Although that period of Abbasid era was fruitful in case of logic and thoughts, social and moral corruptions dominated the society.

It is obvious that maari had not been detached from social and moral atmosphere of Abbasid II era and these had an impact on thoughts and spirituality of the poet and his psychological, social and philosophical viewpoints. These impacts are manifested in his poems. Being inspired by this, maari followed a pious life and a negative attitude toward woman who was believed to be indispensable part of life. Looking at him from this perspective, death was the only salvation and the end of all difficulties, tortures and hardships. By and large, sticking to his instincts was part of his integrity. From this perspective, in order to compensate for his own deprivation, he loved woman and marriage in his sub-consciousness. This fact reflected his return to his true self and interpenetration of theism and his satiety of his greatness versus duality and instinct needs of human being.

From this perspective, in order to compensate for his own deprivation, he loved woman and marriage in his sub-consciousness. This fact reflected his return to his true self and interpenetration of theism and his satiety of his greatness versus duality and instinct needs of human being.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

آراء المعري في المرأة والدنيا والموت ، دلالاتها و

ابراهيم انارى بزجلوئى الف*

الف - الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اراك، i-anari@araku.ac.ir

المفتاحية:	١ ملخص
أبو العلاء المعري، الطبع والتطبع، المرأة و الدنيا و الموت.	عاش المعري في العصر العباسي الثاني، وكان عصر ازدهار عقلي، وفي ضوئه تأثرت عقلية المعري ببعض الفلاسفة، لكننا مهما اجتهدنا في إثبات أنَّ الحياة العقلية للعباسيين قد كانت راقية، فعلينا أن نعترف بفساد الحياة الاجتماعية والخلقية وانحطاطهما في ذلك العصر، فليس المعري بمعزل عن البيئة وتأثيرها عليه، فقد ترك فساد الحياة الاجتماعية والخلقية في نفسه آثاراً في الجوانب الفكرية والاجتماعية والنفسية، فنشأ من هذه المؤثرات زهد في الدنيا ورفضه المرأة كجزء من أجزائها وإيثاره الموت كحلٍّ شامل لهذه المعاناة وبما أنه كان سائماً عن عشرة حكمتها الذلّة وسيطر عليها الظلم، واستبدَّ بحقوقها الأمراء يظلمونها أشد الظلم، ويكيدون شرَّ الكيد، فطبيعي أن ينصرف عن الدنيا وأن يهد فيها؛ لأنَّ الإنسان في رأيه شرير بطبعه، وأنَّ الفساد غريزة فيه، ولذلك لم ينتظر منه إصلاحاً ولم يرج لأدوائه شفاءً و زد على هذا أن المعري في ضوء الازدهار العقلي تأثر ببعض الفلاسفة ومنهم أبيقور الذي ينتمي إلى النفعيين و رأى في الدنيا والمرأة اللذة والألم معاً ولكنه أراد أن يحصلهما دون الألم ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً، ولعلَّ إيثاره الموت يعود إلى قاعدة اللذة؛ لأنَّه رأى أنَّ الألم أكثر من الموت فأثر الموت وبما أن النفعيين يرون أنَّ كلَّ نافع جميل مهما يكن شكله، فأبو العلاء وجد إيثار نفسه على الدنيا والمرأة وإيثار الموت على الحياة نافعاً، فرأى الجمال في انصراف عن كل هؤلاء وإن خالف القياس والشرع. تهدف هذه الدراسة في ضوء المنهج التوصيفي والتحليلي إلى إزاحة الستار عن الحياة الغامضة للمعري فخلص البحث إلى أنَّه عرف اللذائذ بطبعه، وتركها بتطبعه ناسياً إقراره واعترافه في لزومياته أنَّ الطبع أصيلٌ والتطبع دخيل.
تاريخ البريد: ١٤٠٢/٠٤/٠٦	
تاريخ المراجعة: ١٤٠٢/٠٥/٠٣	
تاريخ القبول: ١٤٠٢/٠٦/١٣	

سيرة الشاعر:

ولد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعروف بالمعري في معرة النعمان في يوم الجمعة من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ. (ابن خلكان، ١٤١٧ هـ، ج ١: ٦٤ والحموي، د. ت، ج ٣: ١٠٧ - ١٠٨). فسماه أبواه أبا العلاء، ولكنه كره هذه الكنية (فيما بعد) ورأى أن من الظلم أن يُضاف إلى التصعيد والعلو، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط:

دُعِيْتُ أبا العلاء فذاك مِينٌ و لكنَّ الصَّحِيحَ أبو التُّزُولِ

(حسين، ١٩٩١ م، ج ٣: ٤٦٤ - ٤٦٦)

وفي سنة ٣٦٧ هـ وهي السنة الرابعة من حياته، رمته الأيام بأول ما خبأت له من كبار المصائب، رمته بالجذري. (المصدر نفسه: ٤٦٦) مما أدى إلى كَفِّ بصره، ولكنه لم يخلِ دون تحصيله العلم؛ لأنه ترعرع في وسط علميٍّ وأسرة «قد قرضوا الشعر فأجادوا قرضه»، (المصدر نفسه: ٤٦٢) فأخذ عن أبيه مبادئ العلوم «ولقد بدأ يقرض الشعر ولما يعدُّ إحدى عشرة سنة» (المصدر نفسه: ٤٦٩)، ثُمَّ ترك المعرة إلى حلب، وإنطاكية، واللاذقية، وطرابلس الشام، وبغداد (شلق، ١٩٨١ م: ٩) طالباً العلم ومختلفاً إلى المكتبات ودور العلم، وبينما هو في بغداد وصل إليه نبأ مرض والدته، فغادر بغداد قاصداً المعرة، ولكنه في الطريق بلغه نعي أمته فزاد ذلك في سوء حاله فقرَّر العزلة عن الناس، ثُمَّ لزم داره بها رهين محبسيه: منزله وعماه حتى توفي سنة ٤٢٩ هـ. (الحموي، د. ت، ج ٣: ١٠٨ - ١٠٩ و حسين، ١٩٩١ م، ج ٣: ٥٢٤)

موقفه عن الدنيا:

إستوقف الباحثين رأى أبي العلاء في الدنيا، لأنه لعن الدنيا مراراً وصَبَّ عليها جامِ نِقْمَتِهِ واستنزل على الدنيا غضبة الله وكنَّها أم دفر، فلم يزل يقرعها من اللؤم بكلِّ قارعة حتى أصبح و إِنَّهُ لأَكْثَرُ الشعراء ذمًّا للدنيا: (المصدر نفسه: ٤٧٦)

دُنْيَاكَ تُكْنِي بِأَمِّ دَفْرٍ لَمْ يُكْنِهَا النَّاسُ أُمَّ طَيْبٍ

(المعري، د. ت، ج ١: ١٣٧)

وَأُمُّ دَفْرٍ لَعْمَرِي شَرُّ وَالِدَةٍ وَبَنَّتُهَا أُمُّ لَيْلَى شَرُّ مَوْلُودَةٍ

(المصدر نفسه: ٢٩١)

فلم يقف في ذمِّها عند هذا الحدِّ بل جاوزه إلى تشبيهها بصور حيوانية كريهة تدلُّ على الفُتْكَ والخديعة:

إِنَّ دُنْيَاكَ مِنْ نَهَارٍ وَلَيْلٍ وَهِيَ فِي ذَاكَ حَيَّةٌ عَرَمَاءُ

(المصدر نفسه: ٥٩)

كما يشكو من غدرها وظلمها عليه فلا يطمئنُّ إليها؛ لأنه يُظْهِرُ لها حبًّا صادقاً ويريد الاستئناس بها ولكنها تُخَيِّبُهُ أملاً:

أُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا حُمُودَ شُرُورِهَا فَتَوَقَّدُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ نَارَهَا
وَتُظْهِرُ لِي مَقْتًا وَأَضْمِرُ حُبًّا كَأَنِّي جَهْلٌ مَا عَرَفْتُ شَنَارَهَا

(المصدر نفسه: ٤٠٨ - ٤٠٩)

فيتهاهي إلى رفضها بما يكمن فيها من مفاتن وشرور ويصبح شديد الظنِّ بها وشديد الحذر منها فنراه ينصح بالإعراض عنها ولو كانت عروساً حسناً جميلة:

إِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا عَرُوساً تُرَى فَلْتَنْصَرِفْ عَنْكَ بِتَغْنِيْسِهَا
كَالْغُولِ غَالَتْكَ بِتَلْوِينِهَا بَيْنَ تَقْدِيرِهَا وَتَبْنِيْسِهَا

(المصدر نفسه: ٥٨٤)

ولكن ما هي الظروف والأسباب التي دعت به إلى مثل هذه المواقف؟ فلننظر إلى المجتمع الذي عاش فيه أبو العلاء من خلال لزومياته؛ لأنه يصوره فيه أيما تصوير، فقد عمَّ الشرُّ السهل والجل؛ ذلك لأنَّ من يسوس الأمور لا عقل له ولا ضمير:

يَسُوسُونَ الْأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلِ فَيَنْفُذُ حُكْمَهُمْ وَ يُقَالُ سَاسَهُ
فَأُفٍّ مِنَ الْحَيَاةِ وَ أَفٌّ مِنِّي وَ مِنْ زَمَنِ رِئَاسَتِهِ خَسَاسَهُ

(المعري، د.تا، ج ١: ٥٦٠)

فيظهر أبو العلاء سائماً عن عشرة حكمتها الدِّلة وسيطر عليها الظلم، واستبدَّ بحقوقها الأمراء يظلمونها أشد الظلم... ويكيدون شرَّ الكيد... وإنما هم لها أجراء، وعنهما وكلاء. (حسين، ١٩٩١م، ج ٣: ٧٩٤-٧٩٥)

مُلُّ الْمَقَامِ فَكَمْ أَعَاشِرُ أُمَّةً أَمَرْتُ بِغَيْرِ صِلَاحِهَا أُمَرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ وَ اسْتَجَارُوا كَيْدَهَا فَعَدَّوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا

(المعري، د.تا، ج ١: ٥٦-٥٧)

ويوجّه بغضه على الذين يظهرون النسك فيعمد الناس إليهم مؤمنين ولكنهم مقترفون لما ينهون الناس عنه فإنهم يُسيئون من جهتين: يُسيئون لاقتراف الآثام، ويسئون لغش الناس وتضليل العقول:

رُؤَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وَ أَنْتَ خُرٌّ بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعْطُ النَّسَاءَ
يُحَرِّمُ فِيكُمْ الصَّهْبَاءَ صُبْحاً وَيَشْرِبُهَا عَلَى عَمَدٍ مَسَاءً
إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى فَمِنْ جِهَتَيْنِ لَا جِهَةَ أَسَاءَ

(المصدر نفسه: ٦٠-٦١)

فطبيعي أن ينصرف أبو العلاء عن الدنيا وأن يزهّد فيها؛ لأنَّ الإنسان . في رأيه . شرير بطبعه، وأنَّ الفساد غريزة فيه، ولذلك لم ينتظر منه إصلاحاً ولم يرج لأدوائه شفاءً:

إِنْ مَارَتْ النَّاسَ أَخْلَاقُ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبْعِ أَسْوَاءُ

(المعري، د.تا، ج ١: ٥٢)

موقفه من المرأة:

الموقف الثاني الذي استقصاه الباحثون هو رأى أبي العلاء المعري في المرأة كجزء من هذه الدنيا والوجود؛ لأن المؤثرات الاجتماعية والخلقية والفكرية في عهده قد أثرت في تكوين مزاجه النفسي، فلذلك ساء ظنُّه بها كما ساء ظنُّه بالدنيا والوجود فنراه - كما ذهب إليه الباحثون - (العزاوي، ١٩٩٩ م: ٦٣) يرفض المرأة رفضاً مبدئياً شديداً كجزء من فلسفته من رفض الوجود:

بَدءُ السَّعَادَةِ أَنْ لَمْ تُخْلَقْ امْرَأَةٌ فَهَلْ تَوَدُّ جُمَادَى أَهْمًا رَجَبُ

(المعري، د. تا، ج ١: ٨٤)

ثم يرى استحالة القضاء على وجودها فينظر إليها نظرة واقعية فيستسلم لوجودها غير مؤثرة أو بعبارة أخرى ينوي موتها معنوياً:

عَلِّمُوهُنَّ الْغَزْلَ وَ النَّسْجَ وَ الرَّدْنَ وَ خَلُّوا كِتَابَةً وَ قِرَاءَةً
فَصَلَاةَ الْفَتَاةِ بِالْحَمْدِ وَالْإِخَاءِ لَأَصِ تَجْزِي عَنْ يُونُسٍ وَ بَرَاءَةٍ

(المصدر نفسه: ٦٢)

فينتهي إلى قبولها عقيماً غير قادرة على فعل الإنجاب:

أَرَى النَّسْلَ ذَنْبًا لِلْفَتَى لَا يُقَالُهُ فَلَا تَنْكَحَنَّ الدَّهْرَ غَيْرَ عَقِيمٍ

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٣٧)

إِنْ شِئْتَ يَوْمًا وَصَلَةً بِقَرِينَةٍ فَخَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ عَقِيمُهَا

(المصدر نفسه، ج ٢: ٢٨١)

فمن الطبيعي إذا أعرض أبوالعلاء عن النسل، أن يعرض عن الزواج؛ لأنَّه سبيله فلذلك قد نهي عن الزواج قائلاً:

تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمَ وَ بَيْنِي وَلَمْ يُوصَلَ بِلَامِي بَاءُ
تَتَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَتَاءَبَ خَالِدٌ بَعْدَوَى فَمَا أَعْدَتَنِي الثُّؤْبَاءُ

(المعري، د. تا، ج ١: ٤٧ - ٤٨)

فرأى أنَّ من الواجب اتقاء الوجود، والاجتهاد في قطع سلسلته بالإعراض عن النسل الذي هو الحافظ لهذا الوجود، وقد عدَّ أبوالعلاء النسل جناية على الأبرياء، لأنَّه إلقاء لأولئك الأبناء في بيئة مملوءة بالشرور، وقد كانوا بنجوة عنها لو لم يؤلِّدوا وفي ذلك يقول:

عَلَى الْوُلْدِ يَجْنِي وَالِدٌ وَلَوْ أَهْمَ
وَزَادَكَ بَعْدًا مِنْ بَنِيكَ وَ زَادَهُمْ
يَرُونَ أَبَا أَلْفَاهُمْ فِي مُوَرَّبٍ
وَلَاةً عَلَى أَمْصَارِهِمْ خُطْبَاءُ
عَلَيْكَ حُقُودًا أَهْمَ نَحْسَاءُ
مِنْ الْعَقْدِ ضَلَّتْ حَلَّةُ الْأَرْبَاءُ

(المصدر نفسه: ٤٨)

وقوله في إثارة العقم على الإيلاد والعدم على الوجود:

أَرَى وَلَدَ الْفَتَى عِبْأً عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَمْسَى عَقِيمًا
فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٢٣)

موقفه عن الموت:

حين بلغت به المكابدة أقصى مداها والمجاهدة أقسى مراتبها ولم يجد الخلاص من كل هذه المعاناة رأى أبو العلاء في الموت أنجع دواء، ساري المفعول، يستخلصه من همومه ومعاناته، بحيث يحسب الموت انتصاراً له على الموت بدلاً من مرارة الاغتيال. (شرف الدين، ١٩٨٥ م: ١٢١) ثم يترك ذلك التشاؤم الذي كان قد سيطر عليه في الحياة ويسلك سبيل التفاؤل في الموت ويقول فيه بصراحة: «نحب الحياة ونكره الموت، وما نعرف لشيء من ذلك سبباً لقد عرفنا شر الحياة وضرها، وأرى أننا لا نكره الموت إلا لجهلنا بإياه، وغفلتنا عنه إننا لم ندق طعمه ولم نبذل ثمره! وأي فرق بين الموت والنوم إلا قصر هذا وطول ذاك؟!». (حسين، ١٩٩١ م، ج ٣: ٨٢٢-٨٢٧)

وَنَوْمِي مَوْتٌ قَرِيبُ التُّشُورِ وَمَوْتِي نَوْمٌ طَوِيلُ الْكَرَى

(المعري، د. تا، ج ١: ٧٣)

فيوصي على تهوين لقاء الموت ويرى خشونته وغلظته ألين مساً من نعمة الحياة ورقتها وإنما نحن سالكون سبيل أمثالنا الذين مضوا:

فَهَوِّنْ عَلَيْكَ لِقَاءَ الْمَيِّتِ وَقُلْ حِينَ تُطْرَقُ «أَطْرَقَ كَرًا»

(المصدر نفسه: ٧٣)

ويرى أبو العلاء أن ابن أنثى يُظلم من جهتين فالأولى: آلام الحياة ومعاناتها والأخرى الخوف من الموت فيتمنى الراحة والخلاص منه:

حَيَاةٌ عَنَاءٌ وَ مَوْتٌ عَنَى فَلَيْتَ بَعِيدَ حَمَامٍ دَنَا
وَمَنْ صَمَهُ جَدْتُ لَمْ يُبَلْ عَلَى مَا أَقَادَ وَلَا مَا اقْتَنَى
يَصِيرُ تُرَاباً سَوَاءً عَلَيْهِ مِنْ مَسِّ الْخَرِيرِ وَ طَعْنِ الْقَنَا

(المصدر نفسه: ٧٥-٧٦)

فلتخفيف آلام الحياة والموت أو لتهديم إحداها سالكاً سبيل التقليل يتمنى للوليد الذي لما يعرف من الحياة حلواً ولا مرراً ولما ير من العيش خيراً، ولا شراً، موتاً يريحه من مستقبل أيامه ومستأنف زمانه، موتاً يصرفه عن ثدي أمه قبل أن يرتضع منها قوتاً يشوبه الشر وغذاء يخالطه السوء:

وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةً وَضَعَهُ وَلَمْ يَرْتَضِعْ مِنْ أُمِّهِ التُّفْسَاءِ

(المصدر نفسه: ٦٢)

كلُّ من قرأ ديوان لزوم ما لا يلزم بإمكانه أن يستشفَّ من خلال قراءته مواقف أبي العلاء في الدنيا والمرأة والموت من غير ما صعوبة، وهذا الذي أوردناه هو ما ذهب إليه أكثر الباحثين فيما كتبوا عن أبي العلاء ولكن يبدو من خلال القراءات المتعمقة أنَّ أبا العلاء كان يحبُّ الدنيا والمرأة، ولكنه كان في حبهما متأثراً بالفيلسوف اليوناني أبيقور. ذلك لأنَّ أبا العلاء عاش في العصر الثاني للعباسيين، وكان هذا العصر عصر ازدهار عقلي وأنَّ المسلمين زهت فيه حياتهم العقلية وفي ضوءها تأثر أبا العلاء ببعض الفلاسفة ومنهم أبيقور.

والناس لا يفهمون من أبيقور إلَّا رجلاً مستهتراً باللذات، متهاكاً عليها فأين هذا الرجل من أبي العلاء غير أنَّ الدارس يرى الفرق بينه وبين أبي العلاء لم يكن عظيماً. (حسين، د.تا، ج ٣: ٦٢٨-٦٦٩)

كان هذا الحكيم يرى أنَّ من حق الإنسان أن يستمتع باللذات إلى أقصى حدٍّ ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل إليه؛ لأنَّه لا يصحُّ ولا يستقيم إلا إذا خلا من الألم والظلم. (حسين، ١٩٩١م، ج ٣: ٨٥٩). لا جرم انتهى أبيقور إلى رفض اللذة عملاً، لأنَّه لم يستطع أن يحصلهما خالية من الألم، لذلك أنفق حياته في مثل حال أبي العلاء من الزهد والقناعة فكان لا يأكل إلا الشعير ولا يلبس إلا خشن الثياب.

ظهر مما تقدم أنَّ أبا العلاء رأى في الدنيا والمرأة اللذة والألم معاً ولكنه أراد أن يحصلهما دون الألم ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً، أو أنَّه رأى في الدنيا والمرأة كبيرَ عناءٍ وقليل لذة، وانصرف عنهما متأثراً بفلسفة أبيقور، ولعلَّ إثارة الموت يعود إلى قاعدة اللذة؛ لأنَّه رأى أنَّ الألم أكثر من الموت فأثر الموت.

والشيء الآخر الذي تجدر الإشارة إليه هو أنَّ أبا العلاء ذهب في الدنيا والمرأة والموت مذهب من يحبُّ نفسه ويؤثرها بالخير إذ إن هذه النفسية تُشَمُّ من بعض أشعاره:

إِذَا كَانَ إِكْرَامِي صَدِيقِي وَاجِباً فَإِكْرَامُ نَفْسِي . لَا مُحَالَةً . أَوْجِبُ

(المعري، د.تا، ج ١: ٨١)

ومن هنا يمكننا أن ندعي أنَّ أبا العلاء ينتمي إلى النفعيين الذين يرون أنَّ كلَّ نافع جميل مهما يكن شكله ومنظره، فأبا العلاء وجد إثارة نفسه على الدنيا والمرأة وإثارة الموت على الحياة نافعاً فرأى الجمال في انصراف عن كل هؤلاء وإن خالف القياس والشرع.

الرموز الأثوية في شعر المعري:

علَّلنا انصراف المعري عن الدنيا والمرأة بتأثره ببعض الفلاسفة وإثارة نفسه على غيره ولكن يبدو أنَّ التوفيق لم يواكبه في تطبيقهما في آفاق حياته، فلذلك نستقصي تعامله مع ملذات الحياة وخاصةً الأثني كنموذج منها، لعله يهدينا إلى تصور جديد.

مما يثيرُ التساؤل في هذا الشأن ويستدعي تفسيراً جديداً هو مواقف الباحثين المختلفة عن الملذات عند المعري، فهذا الراجكوتي يرفض تغزل المعري للاشتهاء. (شلق، ١٩٨١م: ٢١) وذلك ما روى عبود يدحض ما ذهب إليه الراجكوتي قائلاً: «إن المعري عرف

اللذائذ والمتع في شبابه الا الخمرة وهذا ما يوافقه عليه ابن النديم وسواه من مؤرخي أبي العلاء القدماء». (المصدر نفسه: ٢١)

ثم أدلت الأستاذة عائشة عبد الرحمن بدلوها في الموضوع وأجأها دراستها عنه إلى «أنَّ محاولات أبي العلاء كلها شعراً كان أو نثراً

جهاذاً لكفِّ نفسه عن حبِّ الدنيا بعد أن حيل بينه وبينها لفقد بصره. فاذا تغزل فهو يتغزل بهذه الدنيا وملذاتها وإذا تحمَّس

فحماسته رمز لجهادٍ لكفِّ نفسه عن طلب الدنيا التي فرض عليه اليأس منها. بل إذا كتب رسالة الغفران ووصف الجنة وما فيها

من النعيم فهو لا يصف إلا هذه الدنيا التي أحبَّها وكلفَ بها ثمَّ حيلَ بينه وبينها». (حسين، ١٩٨٤م: ٤٧-٥٥)

لعلَّ «علي شلق» يؤيد ما ذهب إليه مارون عبود حينما يقول: «تحدث المعري في رسالة الغفران وأطال الحديث، ولهاً، وافتنَّ في اللهو، عابثاً منطلقاً على هواه بحرية لا تحدُّها حدود الجسد... وخلف كلِّ صورة من صوره شيءٌ حادُّ، عارمٌ، قحام، اسمه التحدي والتشهي، والتطاول في جو واحد.

بالتحدي لم يلن عوده لرياح الأيام، وعزلة المحبسين، وأوهام الستين من العمر، فهو يصوِّر بشوق ولهات دم اللذائذ التي حرم منها... وهو المقرُّ والمعترف برغباته في الحياة:

وَلَمْ أَعْرِضْ عَنِ اللَّذَاتِ إِلَّا لِأَنَّ خِيَارَهَا عَنِّي خَسَنَتْهُ

وبالتشهي واصل السير في مضايق الحياة، وسافر طلباً لمشتيتها وأمجادها، وفتح باب داره وعزلته للكبار والصغار من المقبلين عليه. وإنَّه بتطاوله ترك بغداد وهو لها عاشق وبها مقيم، ولكنه ما زال عالق القلب بها، واعتزل وبقي متصلاً بكل ما كتبه إليه، أو ردَّ عليه، وحاور، وأملى، وكل سطرٍ من سطره لم يخدم فيه لب الشوق إلى الوجود والرغبة في العيش رغم القساوة التي أخذ بها نفسه... وهل يجحد جاحداً أنَّ تعلقه بأمة هو تعلقه بالحياة ذاتها، وأنَّه إن حزن فإنَّه يحزن على الفرح الذي لم يرقص له قلبه والنور الذي لم تسبح فيه عيناه؟». (شلق، ١٩٨١م: ٨٥-٨٧)

لكننا نذهب المذهب الأصالة في اللذات عند المعري ونعتقد أنَّه عرف اللذائذ بطبعه، وتركها بتطبعه كما يقر ويعترف في لزومياته أنَّ الطبع أصيلٌ و التطلع دخيل:

وَالْحَيْرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبْعِهِ وَإِذَا اللَّئِيمُ سَخَا فَذَاكَ تَكَلُّفُ

(المعري، د.تا، ج ٢: ٥٧-٥٨)

ومن تطبعه تعامله مع الأنثى؛ لأنَّه لم يقدر أن يستر حبَّها بطبعه فكأنَّه حينما «افتقد حواء في البشر راح يتلمس أخرى بديلة في مظاهر الحياة والطبيعة والكون كي تبدد عذاباته وتؤنس وحشته... وإذا ما تجسَّمت حواء البشرية أمثولةً للمفاسد والشور غالباً فإنه يدخر لأنثاه الوهمية ما يهيئها، لأن تقوم بالضد من ذلك أُمُودجاً للخير والوفاء وعلى نحو يشي بمرارة دفينه وراء الكلمات». (العزاوي، ١٩٩٩م: ٦٤) ومن ذلك على سبيل المثال نرى أنَّه يجسّد الصمت بصورة المرأة ويبررها عن الخطأ حباً لأنثاه الوهمية المتخيلة وتعبيراً عمماً يلقنه إليه طبعه:

يَا رِيَّةَ الصَّمْتِ أَنْتِ آمِنَةٌ إِذَا هَفَا نَاطِقٌ بِالسَّقَطِ
وَصَلَكِ بِالنَّارِ وَالشَّنَارِ فَقَدْ غَفَنَاهُ إِذْ قَطَّ شِعْرَهُ فَقَطِ

(المعري، د.تا، ج ٢: ١١)

وفي موضع آخر يؤثر مؤنثات الكواكب على نساء البشر رجوعاً إلى طبعه في حبِّ الأنثى بالرغم أنَّ أمانيه العدمية تتردد أصدائها في جنبات شعره:

كُوْنِي الثَّرِيَا أَوْ حَضَارِ أَوْ الـ جَوَزَاءَ أَوْ كَالشَّمْسِ لَا تَلِدُ
فَتَلَكَ أَشْرَفُ مِنْ مُؤَنَّثَةٍ نَجَلَتْ فَضَاقَ بِنَسْلِهَا الْبَلَدُ

(المعري، د.٥، ج ١: ٢٨٠ - ٢٨١)

كما أشرنا سابقاً فإنَّ المعريَّ زهد في الدنيا وملذاتها ولذلك غاب عن شعره الوصف الحسي للمرأة، ولكنه لم يستطع التخلص من فطرته وطبعه: «فأشبع من خلال كلماته جوع الحرمان والقهر الذي عاناه في صراع محموم في أعماقه بين حب غريزي مقبل على (الحياة/ المرأة) وبين نفور متولد عن قسوة تحكيمة للمعايير العقلانية فيها». (العزاوي، ١٩٩٩ م: ٦٥) فلننظر في هذا الصدد إلى قوله في الناقة:

مَنْ لِي بِإِمْلِسِيَّةٍ أَغْنَى بَهَا وَجَنَاءَ تَقْطَعُ فِي الدُّجَى الْإِمْلِسَا

(المصدر نفسه: ٥٦١)

فيتمنَّى ناقة قوية تقطع به القفار نفوراً من الناس، ولكنه يؤثرها أن تكون ناعمة الملمس منطلقاً إلى طبعه ومشيراً إلى مرارة دفينية في كيانه من وراء الكلمات ومثله قوله في الخطبة في إحدى درعياته، فإنه يحاول تذوقها في خياله إن افتقدتها في الواقع:

مُعَسَّةٌ إِنْ جَاءَهَا الرُّمْحُ خَاطِباً سَقَنَتْهُ دُعَاةُ الْمَوْتِ شَمَطَاءَ عَانِسُ

(المعري، ١٣٢٤ هـ، ج ٢: ٢٨٥)

فأنه لما جعل الرمح القاصد للدرع خاطباً، جعل الدرع مُعَسَّةً وعانساً لامتناعها أن تجيب خطبة الرمح. (المصدر نفسه: ٢٨٥) فَصَوَّرَ لَنَا تَصْوِيرًا جَمِيلًا عَنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ وَمِلْذَاتِهَا مَشْبَعًا جَوْعَ حِرْمَانِهِ وَمَعَانَاتِهِ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

حَصَانٌ بَغِيٍّ مَا تَنْتَ يَدَ لَا مِسٍ ذَكَتْ وَ أَحَسَّ الْقُرُّ فِيهَا اللَّوَامِسُ

(المصدر نفسه: ٢٨٥)

فشبهه الدرع بملاح أثوية معبراً عن رغبته في أنثاه الوهمية ومثله قوله في تصوير درعيه كجارتى الرجل أي امرأته:

إِنَّمَا جَارَتَايَ جَارِيَتَا حَيٍّ وَ مَا زَالَتْ النِّسَاءُ كَثِيرًا

(المعري، ١٣٢٤ هـ، ج ٢: ٢٢٣)

ومما يستحق ذكره في هذا المضمار موقع الأم في حياته وشعره ويعتبر موقفه منها خروجاً على موقفه العام إزاء المرأة فنراه يكرها تعظيماً ويضرب صفحاً عن كينونتها النسوية ويجعلها أعظم وأجلَّ من أن يرثيها لسانه:

وَأَكْبَرُ أَنْ يُرْثِيَهَا لِسَانِي بَلَفْظٍ سَالِكٍ طُرُقِ الطَّعَامِ

(المصدر نفسه: ١٢٠)

ثمَّ يشير إلى ما بذلته من الجهد في رعايته وتربيته ويدَّعى أنَّ ما استقى من مناهلها هو أتمُّ وأكمل بحيث لا يحتاج إلى مورد آخر حتى ظنَّ به أنه نَعَامٌ في استغنائه عن الموارد:

كَفَّانِي رُبُّهَا مِنْ كُلِّ رِيٍّ إِلَى أَنْ كِدْتُ أُخْسِبُ فِي النَّعَامِ

(المصدر نفسه: ١٣٣)

وإحساسه المرهف بالأمومة ولحفته إليها قادتته إلى أن يكتشف في مظاهر الطبيعة والحياة ضروباً رمزيةً من الأمومة التي فقدتها في الواقع فإنَّه يخاطب الدنيا دائماً بأعذب كلمة عنده وهي الأم بالرغم من قهرها وانصرافه عنها وزهده فيها:

خَسِيسَتْ يَا أُمَّنا الدُّنْيَا فَأَفِّ لَنَا بَنُو الْحَسِيسَةِ أَوْبَاشُ أَخْسَاءُ

(المعري، د.ت، ج ١: ٥١)

فعللاً فقد أمَّه جعله يتوارى خلف دروع اخترعها له وهمه؛ لأنَّها كانت حصنه الحصين فلهذا لسنا نشاطر عميد الأدب العربي فيما ذهب إليه حول درعياته قائلاً: «ولقد حاولنا أن نعلل عناية أبي العلاء بالدروع خاصّة فلم نستطع أن نفهم لذلك سبباً إلا أن يكون قد حفظ في وصف الدرع، شيئاً كثيراً فأراد أن يظهر مقدّره الفنية بوضع ديوان لها خاصّة». (حسين، ١٩٩١م، ج ٣: ٥٣١)

النتيجة:

- ١- كان أبو العلاء سائماً عن عشرة حكمتها الدّلة وسيطر عليها الظلم، واستبدَّ بحقوقها الأمراء يظلمونها أشد الظلم، ويكيدون شرّ الكيد، وإنَّما هم لها أجراء، وعنّها وكلاء، فطبيعي أن ينصرف أبو العلاء عن الدنيا وأن يزهد فيها؛ لأنَّ الإنسان - في رأيه - شرير بطبعه، وأنَّ الفساد غريزة فيه، ولذلك لم ينتظر منه إصلاحاً ولم يرج لأدوائه شفاءً.
- ٢- إنه كان يرى في المرأة بأنَّها جزء من هذه الدنيا والوجود؛ لأنَّ المؤثرات الاجتماعية والخلقية والفكرية في عهده قد أثّرت في تكوين مزاجه النفسي، فلذلك ساء ظنُّه بها كما ساء ظنُّه بالدنيا والوجود، ثمَّ يرى استحالة القضاء على وجودها فينظر إليها نظرة واقعية فيستسلم لوجودها غير مؤثّرة أو بعبارة أخرى ينوي موتها معنوياً.
- ٣- وقد عدَّ أبو العلاء النسل جنابة على الأبرياء، لأنَّه إلقاء لأولئك الأبناء في بيئة مملوءة بالشرور ويبدو من خلال القراءات المتعمقة أنَّ أبو العلاء كان يحبُّ الدنيا والمرأة، ولكنه كان في حبهما متأثراً بالفيلسوف اليوناني أبيقور، ذلك لأنَّ أبو العلاء عاش في العصر الثاني للعباسيين، وكان هذا العصر عصر ازدهار عقلي وأنَّ المسلمين زهت فيه حياتهم العقليّة، وفي ضوءها تأثّر أبو العلاء ببعض الفلاسفة ومنهم أبيقور الذي ينتمي إلى النفعيين وظهر ممّا تقدم أنَّ أبو العلاء رأى في الدنيا والمرأة اللذة والألم معاً ولكنه أراد أن يحصِّلهما دون الألم ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً أو أنّه رأى في الدنيا والمرأة كبيرَ عناءٍ وقليل لذة، و انصرف عنهما متأثراً بفلسفة أبيقور، ولعلَّ إشارته الموت يعود إلى قاعدة اللذة؛ لأنَّه رأى أنَّ الألم أكثر من الموت فأثّر الموت. وبما أن النفعيين يرون أنَّ كلَّ نافع جميل مهما يكن شكله ومنظره، فأبو العلاء وجد إثارة نفسه على الدنيا والمرأة وإثارة الموت على الحياة نافعاً، فرأى الجمال في انصراف عن كل هؤلاء وإن خالف القياس والشرع.
- ٤- يبدو أنَّه عرف اللذائذ بطبعه، وتركها بتطبعه ناسياً إقراره واعترافه في لزومياته أنَّ الطبع أصيلٌ والتطبع دخيل.

المصادر والمآخذ

- [١] ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد. (١٤١٧هـ —، ١٩٩٧م). «وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان». بيروت: دار إحياء التراث الأدبي. الطبعة الأولى.
- [٢] حسين، طه. (١٩٩١م). «الفصول و الغايات»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.
- [٣] ----- (١٩٩١م). «تجديد ذكرى أبي العلاء المعري»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.
- [٤] ----- (١٩٩١م). «صوت أبي العلاء المعري»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.
- [٥] ----- (١٩٨٤م). من مقالة «أبو العلاء المعري» لعائشة عبد الرحمن. ضمن كتاب «خواطر». بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.
- [٦] ----- (١٩٩١م). «صوت أبي العلاء المعري»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.
- [٧] الحموى، ياقوت. (دون التاريخ). «معجم الأدياء». بيروت: دار إحياء التراث العربي. بلا ط.
- [٨] شرف الدين، خليل. (١٩٨٥م). «أبو العلاء المعري مبصر بين عميان». بيروت: دار و مكتبة الهلال.
- [٩] شلق، علي. (١٩٨١م). «أبو العلاء المعري والضبابية المشرقة». بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. بلا ط.
- [١٠] العزاوي، نادية غازي. (١٩٩٩م). «دلالات الرمز الأنثوي في شعر المعري». مجلة المورد. بغداد. العدد الأول. (٣٢-٢٢).
- [١١] المعري، أبو العلاء. (دون التاريخ). «ديوان لزوم ما لا يلزم». حرّره وشرحه الدكتور كمال اليازجي. بلا ط.
- [١٢] المعري، أبو العلاء. (١٣٢٤هـ. ق). «شرح التنوير على سقط الزند». مصطفى أفندى و أخيه. بلا ط.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی